



يشبه ما كان عليه في بداية الألفية... إنّه يعكس صورة أخرى مبهمة... نظام اجتماعي متذبذب. وكأنّنا في كلّ عقد أو اثنين نتحوّر بالكامل ونغادر إلى هويات جديدة... وعلى ما يبدو لا شيء جسّد تلك الزعزعة في الهويّة المحلية بقدر ما كشفته لنا وسائل التواصل الاجتماعي ما بين نرجسية حمى تصوير "السيلفي"، أو تغريدات تعرّض عصباننا الاجتماعية، أو شباب أصبحوا بين ليلة وضحاها قادة رأي في الأوساط العامّة، دون أي كفاءات تذكر، أو فتيان يمنحون مباركاتهم لسلعة أو خدمة تجارية، أو مئات المستخدمين الذين خلقوا من هواتفهم متاجر افتراضية.

اليوم تعيش تكنولوجيا الاتصال دورة حياة شديدة النشاط، يصفها المفكرون بظاهرة "التحفيز الأوتوماتيكي"، أو (autocatalysis). ويكمن الخلاف في أنّ التطور التقني اليوم ليس منوطاً بحاجة معينة تتطلب إضافة ميزة جديدة على نماذج قديمة. على العكس من ذلك، التطور التقني اليوم يطرأ بلا سبب، الأجهزة تتطور من تلقاء ذاتها لأنّها ببساطة تتطور، ونحن لا يكاد يسعنا اللحاق بها. السؤال هو: مَن منا أمضى ثواني للتفكير قبل اتباع آخر تحديث لجهاز الـ iPhone؟ بعد أشهر مفعمة بالترقب، جميعنا سارع لامتلاك الجيل السادس فور وصوله إلى السوق.

قياساً على ملاحظات المفكر السعودي عبداً الغدامي، بإمكاننا اليوم الجزم بأن آلية التواصل الإنساني المباشر بين شخصين، كانت المداولة الشفوية كأداة رئيسة، وتم استبدالها بتواصل يتحكم به الإبهام على شاشات اللمس، بعملية تواصل تباعد الاستقبال فيها عن الإرسال أكثر فأكثر، وشغلته محطات عديدة من التنقيح والتنقية والرقابة. بينما زادت في الوقت نفسه عبرها جرأة الطرح، مع ضمان الأمان النسبي خلف شاشة الهاتف. اليوم في الكويت يبدو أنّ هواتفنا الذكية قد حورت ممارسة التلاقي الإنساني بأبسط مفاهيمه، حيث صرنا ننظر إلى شاشات هواتفنا لاستقبال إشارات هذه الحياة، بدلاً من النظر في عيون بعضنا. يتوافق ذلك مع ما يسميه الإعلامي البريطاني تشارلي بروكر ظاهرة "المرآة السوداء"، أسطح داكنة عاكسة من خلال هواتفنا وأجهزة الكمبيوتر الشخصية، نكاد لا نقوى على الهروب منها في كلّ مناحي حياتنا.

مَن يتأمل طبيعة الحياة في المجتمع الكويتي أو الخليجي اليوم، يستنتج أنّ أحد المفاهيم التي تمت إعادة صياغتها تماماً مع قدوم العصر الرقمي Digital هي "الصورة". خلال أحد لقاءاته على إذاعة بي بي سي البريطانية، علّق المخرج الشهير ألفريد هيتشكوك بأنّ الدراما هي الحياة "حين نستقطع منها الأحداث المملة".

مَن يتأمل كثرة الصور التي تلتقطها هواتف الجميع اليوم، يستنتج أنّنا نعيش في واقع يحاول الجميع فيه أن يرسم لروتينه اليومي طابعاً جذاباً، وكأنّ حياته هي نسق من المغامرات والأسفار والطرائف التي يختزلها عبر الـ Whatsapp أو Instagram، فأصبح أنا موجوداً في واقعين متوازيين، أحدهما أكثر إثارة من الآخر... أحدهما مادي والآخر افتراضي. في هيئتي الافتراضية، هنالك "أنا" كما أريد أن يراني الناس، معدل، مستحدث، محور... في الصور والتسجيلات الصغيرة.

ومن هذا المبدأ، تنطلق ظاهرة الـ Selfie، التي تعكس نرجسية صورة يلتقطها شخص يرغب في التحكم بمحيطه البصري بالكامل. على عكس التقليد الاجتماعي السابق، الذي كان يتطلب أن يلتقط صورتك شخص آخر. الـ Selfie في المقابل هي استراتيجية بصرية يسردها صاحب الصورة نفسه من منظوره، نابعة من رؤيته للعالم، هي اقتصاص من الحياة كما يراها هو، شديدة البعد عن الواقع، شديدة التنقيح والتنقية بمساعدة المرشحات البصرية التي تمنحنا إيّاها هواتفنا.

نحن اليوم نشهد واقعاً يستحيل خلاله التمتع بما تمنحنا إيّاه هذه الحياة في صمت، دون حلول رغبة ملحة بتصويرها وتجميدها في الزمن ومشاركة آلاف آخرين فيها، وكأنّ حواسنا الخمس لم تعد تكفي لاختزال هذه الحياة. على مبدأ "إن لم تسمع الشجرة تقع في الغابة، فهي لم تقع"، صار الحدث في هذه الحياة لا يطرأ إن لم يتم توثيقه عبر الهاتف بطريقة أو بأخرى.

يقول المنظر الألماني والتر بينيامين إنّنا صرنا أخيراً مغمورين بعدد لا متناه من "النسخ" أو "الصور"، ما أدى إلى ضياع الهوية والبريق الملحق بالفنون الأصلية. اليوم في الكويت، وفي ظل حمى التصوير التي غلبت على الكلّ، فقد كلّ شيء في هذه الحياة بريقه الطبيعي، كلّ غروب شمس صار مثل الآخر، كلّ وردة مثل الأخرى، كلّ غيمة ببلادة وفتور سابقتها.

السؤال هنا إذاً عما إن كان قد استنزف داء التصوير جمال الأشياء، مع قدوم العصر الرقمي إلى الكويت، بدأت عديد من الحرف الفنية والتقنية تعيش موتها البطيء... فلطالما ارتبطت حرفة التصوير الفوتوغرافي في السابق بمجموعة من الطقوس التي تطلبت جهداً ليس يسيراً يتضمن انتقاء زاوية بصرية مناسبة، وموازنة التفاوت بين الضوء والظل، ودراسة المساحة والنقطة المركزية للصورة ضمنها، وإمضاء

ساعات من دون النور في معامل التخميص، إضافة إلى ساعات من التقاليد العائلية في ترتيب دفاتر الصور والتحلق حولها.

اليوم، حين يجلس بعضنا مع بعض في مطعم أو مقهى، ونأمل استغرقنا في شاشات هواتفنا الذكية، نأمل أن نستدرك انطفاء شرارة هذه الحياة ►

المصدر: مجلة العربي/ العدد 682 لسنة 2015